

فأما اليتيم

١٨/٥/٢٩هـ ١٤٤١

ناصر بن محمد الأحمد

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله ..

أما بعد أيها المسلمون: أمر الإسلام بالتكافل، ورتب على ذلك أجوراً عظيمة، من ذلك كفالة الأيتام. إن إعانة اليتيم وكفالاته سعادة ونعمة، واليتيم ضعيف لكنه قوي، إذ يقودك إلى الجنة صبي ضعيف، فافرح بإحسانك إلى اليتامى والحنو عليهم، وقضاء حاجاتهم، واحذر احتقارهم، فبحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، ومن فقد رعاية والده بغير يُتم وجب على المجتمع الإحسان إليه وإحاطته بالرعاية والتربية، فكيف ببيتيم الأب، والراحمون يرحمهم الرحمن.

أيها المسلمون: لقد وبخ جل وعلا من لم يكرم بيتيماً (كلا بل لا تكرمون اليتيم). وقرن دعه وهو قهره وظلمه، قرن ذلك بالتكذيب بيوم الدين (أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم). ونهى الله صفوة خلقه عليه الصلاة والسلام أن يقهر أحداً منهم (فأما اليتيم فلا تقهر) أي لا تذله وتنهره وتهنه ولكن أحسن إليه وتلطف به. ونهى عن قرب مال اليتيم إلا بالحسنى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن)، ولا يتولى أموالهم إلا القوي الأمين. ونهى عليه الصلاة والسلام الضعيف من صحابته أن يتولى على شيء من أموالهم فقال: "يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإنني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنّ على اثنين ولا تولين مال اليتيم" رواه مسلم. وأكل ماله من السبع المهلكات، قال عليه الصلاة والسلام "اجتنبوا السبع الموبقات وذكر منهنّ وأكل مال اليتيم" متفق عليه. ومن أكل ماله بغير حق أجم في بطنه ناراً (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً). وإذا رشّد أُعطي ماله وافيّاً من غير بخس أو إخفاء لشيء منه (فإن أنستم منهم رشداً فدفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا).

أيها المسلمون: اليتيم يأتي إلى الدار بالخيرات، وتتنزل بحلولة البركات، ويلين به القلب من الزلات، سأل رجل الإمام أحمد رحمه الله كيف يرق قلبي، قال: "ادخل المقبرة وامسح رأس اليتيم". وأطيب المال ما أعطي منه اليتيم، قال عليه الصلاة والسلام: "إن هذا المال خضرة حلواء، فنعمة صاحب المال المسلم ما أعطي منه المسكين واليتيم وابن السبيل" متفق عليه. الإحسان إليهم يفرّج كرب الآخرة (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نظرةً وسروراً). وإطعامهم سبب لدخول الجنة (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قدوة في كفالة الأيتام، فاتخذ عليه الصلاة والسلام أكثر من عشرة أيتام يحوطهم برعايته وعنايته، فكان لهم أباً رحيماً مشفقاً محباً لهم. ومن كفل يتيماً كان معه في الجنة، قال عليه الصلاة والسلام: "أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين" متفق عليه. قال ابن

بطل رحمه الله: "حق على كل من سمع هذا الحديث أن يعمل به، ليكون رفيق النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك".

واقترى الصحابة رضي الله عنهم أثر النبي صلى الله عليه وسلم فكانت تحت الخلفاء الراشدين أيتاماً في بيوتهم، وكفل نساؤهم أيتاماً من البنات في بيوتهن، كأم المؤمنين عائشة وميمونة وزوجة ابن مسعود رضي الله عنهن، وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا رأى يتيماً مسح رأسه وأعطاه شيئاً. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: "أرحم اليتيم وأدنه منك وأطعمه من طعامك".

أيها المسلمون: اليتيم محفوظ بحفظ الله (وأما الجدارُ فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك). والله عز وجل لا يغلق عن عبده باباً إلا ويفتح له برحمته وفضله أبواباً غيره، واليتيم قد يكون طريقاً للعلو والشموخ، فقد كان في الأمة من فقدوا آباءهم فأصبحوا فيها عظاماً، لقد حفل التاريخ بأناس عاشوا اليتيم، ولكنهم ملؤوا الدنيا علماً وجهاداً ودعوةً وعبادةً.

نشأ أبو هريرة رضي الله عنه يتيماً وكان يرعى لقومه الغنم، ثم لازم النبي صلى الله عليه وسلم فكان راوية الإسلام. يخبر عن نفسه فيقول: "نشأت يتيماً، وهاجرت مسكيناً، وكنت أجيراً لابنة غزوان بطعام بطني وعقبة رجلي، أهدو بهم إذا ركبوا، وأحتطب إذا نزلوا، فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً، وجعل أبا هريرة إماماً".

والإمام البخاري رحمه الله صاحب الصحيح يتيم، وقرأ على ألف شيخ فصنّف أصح كتاب في الحديث، فكان هذا اليتيم نعمة على هذه الأمة.

والإمام الشافعي رحمه الله فقد أباه وهو دون العامين، فنشأ في حجر أمه في قلة من العيش وضيق من الحال فحفظ القرآن وجالس في صباه العلماء فساد أهل زمانه. قال الحميدي: سمعت الشافعي يقول: كنت يتيماً في حجر أمي، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أقوم على الصبيان إذا غاب، وأخفف عنه. فأني شيء كان الشافعي بعد ذلك؟ قال الإمام أحمد: "كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس".

والإمام ابن الجوزي رحمه الله نشأ يتيماً على العفاف والصلاح في حضن عمته فحملته إلى العلماء فصنّف ووعظ قال رحمه الله عن نفسه: "أسلم على يدي أكثر من مائتي ألف"، قال شيخ الإسلام رحمه الله ولا أعلم أحداً صنّف في الإسلام أكثر من تصانيفه.

والزبير بن العوام رضي الله عنه الذي عدله عمر رضي الله عنه بألف فارس، كان ناتج تربية أمه صفية رضي الله عنها بعد أن مات أبوه وهو صغير، وكانت أمه صفية تضربه ضرباً شديداً وهو يتيم، فقيل لها: قتلته، أهلكته! قالت:

إنما أضربه لكي يدبَّ وَيَجْرَّ الجيشُ ذا الجلب

فماذا كان بعد؟ قال الثوري: هؤلاء الثلاثة أحد نجدة الصحابة: حمزة، وعلي، والزبير. وعن عروة قال: كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف: إحداهن في عاتقه، إن كنت لأدخل إصبعي فيها، ضُرب اثنتين يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك. ولا تنسَ أنه اليتيم الذي كانت أمه تضربه!

خلق الله للحروب رجالاً
ورجالاً لقصعةٍ وثريد!

والإمام الأوزاعي رحمه الله مات والده وهو صغير، فربته أمه. نقل الذهبي في ترجمته عن العباس بن الوليد قال: ما رأيت أبي يتعجب من شيء تعجبه من الأوزاعي، فكان يقول: سبحانك تفعل ما تشاء! كان الأوزاعي يتيماً فقيراً في حجر أمه تنقله من بلد إلى بلد، وقد جرى حلمك فيه أن بلغته حيث رأته. يا بني! عجزت الملوك أن تؤدب نفسها وأولادها، وأدب الأوزاعي نفسه! وغير هؤلاء كثير، كانوا أيتاماً كالسيوطي وابن حجر والثوري والقاسم بن محمد، وغيرهم من السلف عاشوا اليتيم، لكنهم أناروا الدنيا بالعلم والفهم، ولم يكن اليتيم عائقاً لهم عن النهوض، بل ربما كان دافعاً لهم.

وإذا أردت أمثلة حاضرة قريبة فهي غير قليلة أيضاً، أمثال: صديق حسن خان، وعبد الرحمن السعدي، وعبد الله القرعاوي، ومحمد الأمين الشنقيطي، وعبد العزيز بن باز، رحمهم الله. وسيد الأيتام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم توفي والده وأمه حمل به، ثم تقلب في أحضان متوالية من أمه إلى جده إلى عمه **(ألم يجدك يتيماً فآوى)**.

قالوا: (اليتيم) فماجَ عطرُ قصيدي
وتلفتت كلماتها تعظيماً
وسمعتَ منها حكمةً أزليةً
أهدت إليّ كتابها المرقوماً
حسبُ اليتيمِ سعادةً أن الذي
نشرَ الهدى في الناس عاش يتيماً!
صلى الله عليه وسلم.

أيها المسلمون: وإذا فقد اليتيم أباه تضاعف واجب الأم نحو أبنائها. أم موسى رعت ابنها موسى عليه السلام واصطفاه الله نبياً **(هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم لكم ناصحون، فرددناه إلى أمه)**. وزكريا عليه السلام كفل مريم **(وكفلها زكريا)**. ومريم أحسنت تربيته لابنها عيسى عليه السلام، واختاره الله رسولا. والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله مات والده وهو حمل في بطن أمه وعاش حياة فقر وفاقة، فحضنته أمه وأدبته وأحسنت تربيته، قال رحمه الله: كانت أمي توظني قبل الفجر بوقت طويل وعمري عشر سنوات، وتُدفع لي الماء في الشتاء، ثم نصلي أنا وإياها ما شئنا من صلاة التهجد، ثم تتطلق بي إلى المسجد في طريق بعيد مظلم موحش لتصلي معي صلاة الفجر في المسجد، وتبقى معي حتى منتصف النهار تنتظر فراغي من طلب العلم وحفظ القرآن. بصبر هذه الأم على اليتيم أخرجت عالماً من علماء المسلمين وأئمتهم.

ويجب على الأم والأوصياء والأولياء الإحسان إلى اليتيم في التربية والرحمة وألا يقتصر على الشفقة والعطف والإنفاق فحسب، بل يكون بالتوجيه الحسن والتعليم النافع قال الله تعالى:

(ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير).

وأول ما يوجه إليه اليتيم حفظ كتاب الله العظيم، فهو العاصم والحافظ والمخرج من الفتن، ثم طلب العلم الشرعي، وحفظ الحديث والفقه وغيرهما، ومجالسة العلماء ولزوم الصحبة الصالحة، مع صرفه عن أسباب الفتن. وعلى من يرعى يتيماً أن يراقب ربه في ذلك الضعيف وأن يخلص في عمله مع الله، فالإخلاص يبسر العمل ويكسوه حلاوة، وعليه ألا يبخل بابتسامة وأن يبذل له ويرحمه، ويقل عثرته، ويحسن ولايته، قال قتادة رحمه الله: "كن لليتيم كالأب الرحيم".
أيها المسلمون: واليتيم طفل اليوم وهو رجل المستقبل، والله يكافئك على كل ما تعمله من تربيته وإحسان ويجازيك على ذلك الجزاء الأوفى، **(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً).**

صغيراً قد جفا الدنيا وناحا	كشيخ حائر أبصرت يوماً
يناغي الدمع قد نسي المراحا	تغالب عينه العبرات حرى
فشق الهمّ قلبي واستباحا	فأبصرني وفي عينيه برق
رويدك يا صغير دع النواحا	فقلت ومقلتي سكبت دموعي
فعين اليتيم من فقد الصلاحا	فقال: أنا (يتيم) قلت: كلا
ظننت الحزن قد ولى وراحا	فخالطت ابتسامته دموعاً
أيا عمّاه أرجوك السماحا	فقال وقد تلعثم في سؤال:
وكل القوم قد عافوا امتداحا	صغار الحي نادوني يتيماً
يسليني، لمن أشكو الجراحا؟!	أحقاً لن يعود أبي، فمن ذا؟!
أناجي الدمع أرتشف الجراحا	وهذا الهمّ شيبني صغيراً
مع الأحلام تصطحب الرياحا	وكل الأمنيات غدت سراهاً
كواه الحزن ممتشقا رماحا	فقلت مغالباً حزني، وقلبي
بهم قد حوى حتى البطاحا	بني كفاك ألهبت الحنايا
لك الأحباب فلترج الفلاحا	بني بني لا تحزن فإننا
نعيد المجد نرتقب الصباحا	لك الأصحاب فلنمض سوياً
وسر النفس قد بانا ولاحا	فودعني يكشر عن ثنايا
وودعني بدمع واستراحا	وأطرق ماشياً يدعو: إلهي

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني الله وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم...

الخطبة الثانية:

الحمد لله ...

أما بعد: أيها المسلمون: الله عز وجل جابر كسر اليتيم، ورافع قدره، ومن كتب عليه اليتيم وهو ضعيف، فالجنة مأوى المستضعفين من المؤمنين، قال عليه الصلاة والسلام: "ألا أخبركم بأهل الجنة، كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره" متفق عليه.

اليتيم فرد من أفراد الأمة ولبنة من لبناتها. غير اليتيم يرعاه أبواه، يعيش في كنفهما تظله روح الجماعة، يفيض عليه والداه من حنانهما، ويمنحانه من عطفهما، ما يجعله بإذن الله بشراً سويًا، وينشأ فيه إنشاءً متوازنًا. أما اليتيم فقد فقدَ هذا الراعي، ومال إلى الانزواء، ينشد عطف الأبوّة الحانية، ويرنو إلى من يمسح رأسه، ويخفف بؤسه، يتطلع إلى من ينسيه مرارة اليتيم وآلام الحرمان.

كم من أم لأيتام يحوم حولها صبيبتها وعينهم شاخصة نحوها، لعلهم يجدون عندها إسعافًا. إن اليتيم إذا لم يجد من يستعيب به حنان الأب المشفق والراعي الرافق، فإنه سيخرج نافر الطبع، وسيعيش شارد الفكر، لا يحس برابطة، ولا يفيض بمودة، وقد ينظر نظر الخائف الحذر، بل قد ينظر نظر الحاقد المتربص، وقد يتحول في نظراته القائمة إلى قوة هادمة.

أيها المسلمون: من خيار بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه. إن خفض الجناح لليتامى والبائسين دليل الشهامة، وكمال المروءة. صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وتحفظ من المحن والبلايا. إن كنت تشكو قسوة في قلبك فأذن منك اليتامى، وامسح على رؤوسهم، وأجلسهم على مائدتك، وألن لهم جانبك. إذا رجوت أن تتقي لفتح جهنم فارحم اليتامى وأحسن إليهم (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا، إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا، فَوَقَّهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا).

لقد تحرج الذين عندهم أيتام من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمعوا القوارع في مثل قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا)، فعزلوا طعام الأيتام وشرابهم، فصاروا يأكلون منفردين، ويعيشون منعزلين، وامتنع آخرون من كفالة اليتيم تحرجاً وتعففاً، وكان هذا موضع حرج آخر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل القرآن مجيباً لهم: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَاعْتَنَكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). وكم من نظار على أوقاف، وأوصياء على أيتام انزلقوا في الشبهات، ثم ترقوا إلى المحرمات، فغلبتهم أطماعهم حتى أصبح واحدهم غنياً من بعد فقر، قاسياً من بعد لين، فويل لهم، ثم ويل لهم: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا). وفي الحديث: "أربع حق على الله ألا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر، وأكل ربا، وأكل مال اليتيم، والعاق لوالديه". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحرج مال الضعيفين المرأة واليتيم" أي أوصيكم باجتنباهما.

أيها المسلمون: وهناك يُتم من نوع آخر، معه أبواه لكنه يعيش حياة الغفلة، وأعداد هؤلاء يتضاعف مع مرور الأيام وكثرة المشاغل والملهيات، فالأب مشغول في وظيفته أو تجارته أو سهرته أو سفرته، والأم كذلك قد تركت ولدها للخادمة، وأصبحت مشغولةً بين السوق والوظيفة، وبين الأزياء والموضة. وحين يكبر الولد وينتهي من رعاية الخادمة ويملك الخروج من المنزل ولو مع صغر سنه، فإنه يلتقم ثدي الشارع، ويختاره سكناً بدل البيت، ليقطع فيه جُل الوقت. هذا يسمى يتيم التربية!

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلاً
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما وبحسن تربية الزمان بديلاً
إن اليتيم هو الذي تلقى له أمّاً تخلّت، أو أباً مشغولاً

إننا لا نطلب من الرجل ولا من المرأة أن يتركوا أشغالهم التي يطلبون منها لقمة العيش، لكننا نقول لهم: إن فترة الغياب الطويل عن الأولاد لها أثر كبير. ولذا كان من الضروري على الزوجين تخصيص أوقات كافية للجلوس مع أبنائهم، واصطحابهم، وحل مشكلاتهم، وإشراكهم معهم في الحياة.

.. اللهم